

الحمامات العمومية في المغرب القديم : نموذج بناسا

الأستاذ .سيدي محمد العيوض
المدرسة العليا للأساتذة / الرباط

يعود استعمال الحمامات إلى فترات ضاربة في القدم، فقد عرفها الإغريق منذ فترات بعيدة، وأصبح هذا التقليد خلال الفترة الرومانية ضرورة ملحة⁽¹⁾، ومن العادات التي لا يمكن الاستغناء عنها، حتى أنه لم تكن هناك مدينة إلا وتوفرت على عدد من هذه المؤسسات سواء كانت خاصة أو عمومية.

بالنسبة للعالم الروماني كانت الحمامات الإمبراطورية مركبات كبيرة لعمليات الاستحمام، إذ نجد بها كذلك قاعات مطالعة ومكتبات وأروقة وحدائق وأماكن للتمارين الرياضية وحلبات لمزاولة التمارين الرياضية، وأحسن مثال عن ذلك تقدمه حمامات كراكلا في روما.

مثلت الحمامات بالنسبة للإغريق مكان استرخاء بعد مزاولة تمارين رياضية، لكن المسألة تختلف بالنسبة للحمامات الرومانية حيث شكلت إلى جانب ما ذكر عنصرًا أساسيًا في الحضارة الرومانية، فقد كان لها دور اجتماعي بالغ الأهمية. دأب الرومان على قضاء وقت طويل بعد الزوال في الحمامات وذلك بعد صبيحة في مزاولة أعمالهم الخاصة وكذلك العمومية، فعادة ما كانت تفتح خلال منتصف النهار. لقد كانت هذه الحمامات مكانًا للقاء الأصدقاء ومزاولة تمارين رياضية أو للتثقيف والمطالعة.

تعكس هذه الأنشطة الأهمية التي كانت لهذه المؤسسة في حياة الإنسان خلال تلك الفترة، ومما يركي ذلك أن الأثرياء من الرومان كانوا يتوفرون في إقاماتهم على حمامات خاصة لها نفس المواصفات، في حين أن الحمامات العمومية كانت لباقي العموم، ونجد أن بعضها كان مجانيًا.

(1) PONSICH (M.), Recherches archéologiques à Tanger et dans sa région, Paris, 1970, p. 300.

أقيمت أولى الحمامات الرومانية في مدينة بومبي ليتم تعميمها بعد ذلك في كل أرجاء الإمبراطورية. فليس هناك من مدينة مهما كانت مساحتها إلا وتوفرت على عدد من هذه المؤسسات المائية⁽²⁾.

من هذه المؤسسات ما كان مخصصا لجنس دون آخر، بل إن بعضها تستغل بالنسبة لجنس خلال فترة معينة من النهار و الجنس الآخر خلال الفترة الأخرى. و منها ما يتوفر على جزء مخصص للرجال و الآخر للنساء و الأمثلة عن هذا النوع نجده في حمامات الفوروم في بومبي⁽³⁾، لا ينسحب هذا المثال على كل حمامات العالم الروماني، فبالنسبة لحمامات شمال إفريقيا كان استغلال الجنسين لمؤسسة واحدة يتم في فترات مختلفة.

أورد فيتروف⁽⁴⁾ Vitruve المواصفات التي يجب أن تتوفر في الحمامات، و مع ذلك فإن بعضها، خاصة المرتبطة منها بالقياسات، لم يقع احترامها في بنائها بفعل عناصر تملئها إكراهات محلية مرتبطة بالمساحة و الطبغرافية.

خضعت هذه الحمامات عند تخطيطها لعدة مقاييس، منها أولا مواجهتها للشمال⁽⁵⁾، كما أن بناءها تم وفق تصميمات مختلفة تحكمت فيها مجموعة عوامل من بينها المساحة المتوفرة، إضافة إلى التعديلات التي تفرضها العوامل المناخية⁽⁶⁾، لذا جاءت تصميماتها متنوعة، فهي إما خطية أو محورية متعامدة⁽⁷⁾. أما توزيع القاعات داخل هذه المؤسسات المائية فيخضع للتنظيم التالي : قاعة باردة، قاعة دافئة قاعتين ساختين، أو أكثر، و تتحكم في هذا التوالي مجموعة من العناصر، فوجود القاعة الدافئة مثلا بين القاعة الباردة و القاعة الساخنة كان بهدف تخفيف ما قد ينجم عن الانتقال المباشر من جو بارد إلى آخر ساخن أو العكس، و من ثم كانت هندسة الحمامات خاضعة لهذا التوالي. إضافة إلى هذه القاعات الأساسية توفرت الحمامات كذلك على ملحقات أخرى : مستودعات، أروقة و مراحيض ومخازن...

إن العملية الرئيسة في هذه الحمامات هي تلك المرتبطة بالتسخين، والتي عكست

(2) CAGNAT (R.), CHAPOT (V.), Manuel d'Archéologie romaine, t.1, Paris, 1916, p.212

(3) CAGNAT (R.), CHAPOT (V.), Ibid, p.213.

(4) VITRUVÉ, Les dix livres d'architecture, traduction Claude Perault, 1673, revue et corrigé sur les textes latins et présentée par ANDRE DALMAS, 1965.

(5) GRENIER (A.), Manuel d'archéologie gallo-romaine, T. 4, Paris, 1960, p. 239.

(6) CAGNAT (R.), CHAPOT (V.), Manuel T.1, op. cit. p.222.

(7) REBUFFAT (R.), Vocabulaire thermal de Maurétanie tingitane, dans les thermes romains table ronde organisé par l'école française de Rome, (11-12 novembre 1988), Rome, 1991, p. 1-34., p.6.

تفوق الرومان التقني في تشغيل الحمامات . لقد كان تسخين القاعات يتم عن طريق تسرب الهواء الساخن إلى القاعات، وبالدرجات التي يرغبون فيها، سواء أسفل هذه القاعات أو في جدرانها عبر أنابيب⁽⁸⁾ .

عادة ما يميز في هذا المجال الساخن بين قاعتين أو لاهما عبارة عن محم جاف يعرق فيه المستحمون قبل دخول الحمام الساخن، أما الغرفة الثانية فيأخذون فيها الحمام الساخن، و يتم تسخين هاتين القاعتين بموقد أو أكثر.

بالنسبة للموقد فهو عبارة عن فتحة توجد في الجدار عرضها مرتبط بحجم الفرن الأرضي . يرتبط مكان وجود هذه المواقد بمساحة الحمامات، إذ توجد في الحمامات الكبيرة على الواجهة الخارجية أو الجانبية و ذلك لتسهيل عملية التمرين، في المقابل فإنها في المنازل توجد في المطبخ⁽⁹⁾ .

فيما يخص أحواض ماء القاعات الساخنة فتوجد فوق فوهة الموقد، وذلك ليتوفر لها كامل السخونة⁽¹⁰⁾ . ويتم تعديل درجة الحرارة داخل القاعة الساخنة، الكالدريوم، (Caldarium) بواسطة سلسلة متبثة في السقف⁽¹¹⁾ .

ارتباطا بعملية التسخين تنبغي الإشارة إلى أن ظهور الأفران الأرضية كان له أثر كبير على هذه العملية، فأصل وتاريخ التسخين بواسطة الأفران الأرضية مرتبطان بتاريخ و تطور الحمامات⁽¹²⁾ . فظهور هذا المرفق كان له أثر على اقتصاد المجهود و التكلفة في تسخين القاعات .

قاعات التسخين:

اختلفت قاعات التسخين حسب مساحة الحمامات مما انعكس على الآليات الأخرى التي تساهم في عمليات التسخين . عادة ما نجد في الحمامات الرومانية آنية للماء الساخن و الأمثلة متعددة في المغرب في حمامات الشمال و حمامات ذات الصباغة الحائطية في بناسا و حمامات غالين (Gallien) و حمامات الشمال و حمامات منزل أورفي في ويلي⁽¹³⁾ .

(8) THOUVENOT (R.), Maisons de Volubilis, P. S. A. M., 12, 1958, p. 27

(9) ADAM (J. P.), La construction romaine, Paris, 1989, p. 289.

(10) Ibid., p. 291.

(11) Ibid., p. 298.

(12) DEGBOMONT (J. M.), Hypocaustes, Le chauffage par hypocauste dans l'habitat privé de la place St. Lambert à Liège à l'Aula platina de Trèves, Liéges, 1984, p. 13.

(13) Zehnacker (H.), Hallier (G.), Les premiers thermes de Volubilis, M. E. F. R., 1965, p. 133

أما بالنسبة للوقود المستعمل فإنه يتكون من محروقات لا تفرز إلا قليلا من الدخان، فقد ورد عند بعض المؤلفين "المواقد والأفران الأرضية حيث اللهب تدور دوائر خفيفة من الدخان" (14)، إن القاعة المسخنة مباشرة بموقد لا يمكن أن تكون قاعة دافئة إلا في حالات نادرة جدا حين تكون مساحة الحمامات كبيرة. (15) بعد هذا التقديم المرتبط بآليات تشغيل الحمامات وبتحديد المقاييس التي يجب مراعاتها في وضع تصاميم هذه البنايات، سنحاول رصد هذه المكونات من خلال حمامات مدينة بناسا العمومية. و لابد من الإشارة إلى أن هذه الحمامات قد اختلفت في توزيعها داخل إقليم موريطنية الطنجية بين حمامات عمومية وأخرى خصوصية بل إن هذا الاختلاف في التوزيع شمل حتى المدينة الواحدة، و تحكمت فيه مجموعة من الشروط.

حمامات بناسا العمومية :

شكلت هذه البنايات موضوع عدد من الدراسات، وتعتبر دراسة ر. توفنو و أ. لوكي أقدمها، بل و الوحيدة التي تتوفر عليها لحد الآن حول هذه المؤسسات، غير أن البعض منها تعاد دراسته من جديد ومع ذلك فإن النتائج لا زالت لم تظهر رغم مرور ما يزيد عن عقد من الزمن.

كل الحمامات التي كشفت عنها الحفريات لحد الآن في موقع بناسا هي مؤسسات عمومية، و عددها أربع تتركز كلها في الجهة الغربية و هي كالتالي :

– حمامات الغرب الكبيرة

– حمامات الشمال

– حمامات الغرب الصغيرة

– حمامات ذات الصباغة الحائطية.

وفيما يلي جدولاً يضم قياسات هذه الحمامات وعدد القاعات الساخنة فيها ومسلك المستحمين (16) :

(14) Silius, I,V,57, cité par R. Thouvenot, A. Luquet, Les thermes de Banasa, p. 55.

(15) REBUFFAT (R), Vocabulaire thermal, op. cit. p. 7.

(16) REBUFFAT (R), HALLIER (G) et. MARION (J); Thamusida, fouilles du service des antiquités au Maroc, T. 2, Paris 1970, p212.

خط سير المستحمين	القاعات الساخنة	المساحة بالمتر مربع	
دائري	3	400	حمامات الشمال
متعامد	3	198	حمامات الغرب الصغيرة
دائري	4	1080	حمامات الغرب الكبيرة
متعامد	2	342	حمامات ذات الصباغة الحائطية

يتضح من هذه الأرقام تواضع مساحات حمامات المدينة، هذا التواضع يمكن ربطه بباقي بنايات المدينة حيث يفضل عنصر المساحة هو المتحكم في إنشائها و هذا الأمر يمكن أن نرجعه إلى الظروف الطبيعية التي حددت المجال الذي يستقر فيه الإنسان و يزاول فيه نشاطه الاقتصادي، إلا أن ذلك لم يحل دون توفر هذه المؤسسات على كل القاعات الضرورية للاستحمام.

تتميز هذه الحمامات بسيادة الحمامات العمومية أمام غياب الحمامات الخصوصية وإن كان ر. توفنو قد أشار إلى وجود اثنتين منها في الجنوب و بجوار الفوروم⁽¹⁷⁾. ومقارنة مع موقع ويلي فإن عدد الحمامات الخصوصية يفوق العمومية، قد يعزى ذلك إلى غياب مسح شامل للموقع و إلى الرقعة العامة التي لم تكن تسمح بتعدد الحمامات الخصوصية خصوصا و أن المنازل نفسها كانت ذات مساحات تقل نسبيا عن مثيلاتها في ويلي.

بالنسبة لحمامات الغرب الكبيرة (الشكل رقم 1): تقع على الواجهة الشمالية الغربية في الجهة المواجهة للكابتول وتمتد على مساحة 1080 م²، مسلكها دائري إلى اليمين⁽¹⁸⁾.

يتم ولوج هذه الحمامات عبر درج مستقيم، لنجد بعد ذلك قاعة الانتظار، والتي قد تكون مستودعا لحفظ الملابس. ومن هذه القاعة نلج أولى قاعات الاستحمام، يتعلق الأمر بالقاعة الباردة (اللوحة 1)، لها مساحة أكبر من باقي القاعات الأخرى وتتوفر في جنباتها على مصطبة، وعلى مسبح بارد (اللوحة 2) ويتم النزول إليه بأدراج من البقايا الموجودة في عين المكان، يظهر أنه كان مغطى بالرخام.

(17) THOUVEOT (R.), Une colonie romaine: Iulia Valentia Banasa, Paris 1947, p. 20 et 30.

(18) REBUFFAT (R.), HALLIER (G.) et. MARION (J.), Thamusida, 2, op. cit., p. 212.

وتوجد باقي القاعات الأخرى المسخنة إلى الغرب من هذه القاعة . في هذا المجال المسخن تتميز نوافذ القاعات بصغر حجمها و كونها محفورة في أعلى الجدران، وهذه التقنية نجدها في الحمامات القديمة وذلك للحيلولة دون تسرب السخونة . إلى جانب هذه القاعات لم تكشف الحفريات عن أي أثر للقاعات الإضافية التي وجدت في حمامات خارج موريطانية الطنجية مثل قاعة المطالعة و قاعة الاستراحة تحت أشعة الشمس . . . كما أن بعض هذه القاعات مبني فوق فرن أرضي و يمكن أن تسخن بمحاذاتها للقاعة الساخنة الموجودة فوق فرن أرضي، وبالتالي نظرا لسخونتها المرتفعة نسبيا يمكن أن تكون خاصة بعمليات التدليك .

اعتبرت هذه الحمامات الأهم من بين مثيلاتها المكتشفة لحد الآن في هذه المدينة، تقاربها من حيث المساحة حمامات غالينوس حوالي 1400 م² والتي لها كذلك نفس عدد القاعات الساخنة . وإذا كانت هذه المساحة تبدو مقارنة مع حمامات أخرى في مدن العالم الروماني جد متواضعة ، فإن ذلك ينطبق على كل حمامات المدينة الشيء الذي كان يلزم المهندسين بتوزيع القاعات حسب المجال المتوفر، و قد يؤثر ذلك حتى على تصميم هذه الحمامات و المسلك الذي سيسلكه المستحمون . تتوفر هذه المؤسسة المائية على سبع قاعات لها وظائف متباينة، أربع منها ساخنة .

فيما يخص التأريخ لهذه البناية، فلا زال يطرح بعض المشاكل فقد أرجعه ر. توفنو⁽¹⁹⁾ إلى بداية القرن الثالث معتمدا في ذلك على نقود تعود للعهد السيفيري وهو نفس التاريخ الذي اقترحه زيهناكير وهاليي،⁽²⁰⁾ إلا أن هذا التاريخ يخص المرحلة المتأخرة في بناء هذه الحمامات، فهذه الأخيرة لم تشيد دفعة واحدة و هذا ما سيجعل تحديد تاريخ البناء الأول مرتبطا بأبحاث ميدانية تهتم بدراسة البناية بكاملها من جديد وفي علاقتها مع البنايات المجاورة، وخاصة الحمامات الأخرى التي توجد في بناسا . حمامات الغرب الصغيرة (الشكل رقم 2، 2) :

يحدد موقع هذه الحمامات على الضفة الجنوبية للديكومانوس الشمالي بمساحة لا تتعدى 160 م² (21) في حين يقدم ر. روبيفا مساحة 198 م² (22) مسلكها متعامد إلى

(19) Ibid., p. 20.

(20) ZEHNACKER (H.), HALLIER (G.), Les premiers thermes de Volubilis et la maison à la citerne, M.E.F.R., 57, 1965, p. 120.

(21) THOUVEOT (R.), LUQUET (A.), Les thermes de Banasa, P.S.A.M. 9, 1951 p. 10.

(22) REBUFFAT (R.), HALLIER G et. MARION J.), Thamusida, 2, op. cit. p. 212.

اليمين تحتوي على كل القاعات الأساسية في الحمامات العمومية. يلاحظ بالنسبة للمجال المسخن، أي الذي يضم القاعات الساخنة، أن القاعات تتجمع على الجهة الجنوبية للبنية، عددها ثلاث.

بالنسبة لتاريخ هذه المؤسسة، بدون شك أنها معاصرة للحمامات الأخرى ويمكن أن تعود إلى القرن الأول⁽²³⁾، ولو أن هذه التقديرات تبقى قابلة للمراجعة.

حمامات الشمال (الشكل رقم 1، 2): توطن هذه الحمامات على الضفة الشمالية للديكومانوس الشمالي وبذلك فهي مقابلة لحمامات الغرب الصغيرة، تأتي في المرتبة الثانية من حيث المساحة بعد حمامات الغرب الكبيرة. جمعت القاعات الساخنة في مساحة مستطيلة كما يلاحظ في حمامات أخرى كحمامات الغرب، الشيء الذي سيكون له تأثير على مسلك المستحمين إذ سنجده مرة أخرى تراجعيا، ولكنه محوريا.

إن تقديم افتراض أن تكون حمامات الشمال وحمامات الغرب الصغيرة، قد انتمت في مرحلة أولى إلى مجموعة واحدة يبقى من الأمور الشائكة لأنه إذا أخذنا بهذا الطرح سنضطر إلى اعتبار أن الشارع قد تم تخطيطه في مرحلة لاحقة، أو أنه طريق مسدود، و نفس الشيء يطرح بالنسبة للبنائيات التي تحاذيه. إضافة إلى كل هذا فقد تضاربت الآراء حول تاريخ هذه المؤسسة فهناك من يعتقد أن هذا التاريخ يعود إلى القرن الثاني، وهذا رأي ر. توفنو، وهالبي وزيلعناكير، وهناك من تبني تاريخ منتصف القرن الميلادي الأول، خاصة إ. لونوار. هذه المسألة تنطبق كذلك على العديد من حمامات موريطنانية الطنجية⁽²⁴⁾.

حمامات ذات الصبغة الحائطية (الشكل رقم 3): تقع إلى الجنوب من باقي الحمامات مساحتها 316 م² مسلكها متعامد إلى اليمين⁽²⁵⁾. تنفرد هذه الحمامات ببعض الخصوصيات، منها طريقة التزود بالماء، إذ تتوفر على بئر تزود خزانا تنطلق منه قناة مائية تنقل الماء إلى المسبح البارد.

عرفت هذه الحمامات مجموعة إصلاحات أدت إلى تقليص مساحة بعض قاعاتها. توفرت في مرحلتها الأولى على قاعتين ساخنتين⁽²⁶⁾، ليتم إضافة أخرى خلال مرحلة متأخرة، وذلك بعد تقليص مساحة بعض الغرف، ويفسر ذلك إغلاق النافذة الكبيرة

(23) LENOIR (E.), Les thermes du nord à Volubilis: recherches sur l'époque flavienne au Maroc. thèse de doctorat dactylographiée, Paris Sorbonne, 1986p. 246.

(24) Ibid., p. 254.

(25) REBUFFAT (R.), HALLIER (G.) et. MARION (J.), Thamusida, 2, op. cit. p. 212.

(26) Ibid., p. 187.

وتعويضها بفتحتين في إحدى قاعاتها و ذلك للحيلولة دون تسرب السخونة إلى الخارج . بالنسبة لخط سير المستحمين فهو كذلك تراجعى . طرحت إيلان لونوار احتمال أن يكون تاريخ المؤسسة يعود إلى فترة إقامة المستوطنة⁽²⁷⁾ لتعود في مرحلة أخرى⁽²⁸⁾ وتقدم تاريخ مؤقتا لبنائها خلال أواسط القرن الميلادي الثاني .

تميزت حمامات المدينة بتواضع مساحاتها مقارنة مع حمامات مدن أخرى وعلى ذلك يظهر أن لعنصر المساحة دور ليس فقط في عدم وجود حمامات خصوصية ولكن كذلك في تنوع التصاميم والتي كان أكثرها شيوعا هو التصميم المحوري أو التصميم الخطي .

إن جميع حمامات المدينة تعكس تعاقبا للقاعات من قاعة بمسبح بارد وقاعة دافئة وقاعة ساخنة بدون حمام وقاعة بحمام ساخن، وبذلك فالطريق الذي يسلكه المستحمون هو خط سير تراجعى وهو النوع السائد في كل حمامات موريطانية الطنجية على عكس باقي الحمامات الأخرى في باقي الإمبراطورية الرومانية التي تسمح بالتنقل من القاعات الساخنة إلى الباردة عبر قاعة الخروج الدافئة⁽²⁹⁾ .

من الملاحظات التي يمكن تسجيلها بالنسبة لحمامات بناصا بصفة خاصة وحمامات موريطانية الطنجية بصفة عامة هي المساحة المتواضعة مقارنة مع نظيرتها في باقي الإمبراطورية، حتى داخل موريطانية الطنجية تبقى حمامات بناصا أقل مساحة في أغلبها من حمامات وليلي⁽³⁰⁾ .

أما فيما يخص قاعات الاستحمام الرئيسية فهي كالتالي :

القاعة الباردة : تتميز بمساحتها مقارنة مع باقي القاعات الأخرى وهذا الاتساع قد يجعلها كذلك مكانا لمزاولة التمارين الرياضية في الحمامات التي لا تتوفر على قاعة مخصصة لمزاولة هذا النشاط . اختلفت وضعية هذه القاعة حسب الجهات، فهي في إفريقيا ونظرا للظروف المناخية مقببة، بخلاف روما حيث كانت ذات سقف مكشوف⁽³¹⁾ . وتهيئا للانتقال إلى المجال المسخن وجدت قاعة وسطى هي القاعة الدافئة .

القاعة الدافئة : لقد كانت وظيفة هذه القاعة هي تسهيل الانتقال المفاجئ من القاعة الباردة إلى القاعة الساخنة .

(27) LENOIR (E.), Les thermes du nord ,op. cit, p. 251.

(28) Id., Les thermes romain, p. 158.

(29) REBUFFAT (R.), Vocabulaire,op. cit. p.6.

(30) REBUFFAT (R.), HALLIER G et. MARION J Thamusida,2,op. cit. p2.

(31) CAGNAT (R.), CHAPOT (V.), Manuel, T. 1,op. cit. p. 225.

أما القاعة الثانية في هذا المجال المسخن فهي :

الحمام الجاف : يعتبر محما حين تكون السخونة جافة، قاعة ساخنة بدون حمام يعرق فيه المستحمون قبل دخول الحمام الساخن وقد يتوفر على أحواض ماء لتسهيل عملية التعريق⁽³²⁾. تتوسط قبة هذه القاعة فتحة تنزل منها سلسلة مشدودة إلى سداة والتي يفتحها و غلقها ترفع وتخفض السخونة داخل هذه القاعة.

قاعة الحمام الساخن : توجد هذه القاعة مجاورة للقاعة الدافئة وذلك لأن حرارة الأولى تساعد في تدفئة الثانية. أورد بلين الأصغر ما يلي ”ينجاور هذه المحلات مسبح ماء ساخن“⁽³³⁾ لعله يشير بذلك إلى هذه القاعة والتي يتم تسخينها بموقد أو أكثر.⁽³⁴⁾ من الملاحظات التي تسجل حول هذه الحمامات هي وجودها على الواجهة الغربية، كما انه بالنسبة للقاعات الساخنة تميز فيها بين الحمامات ذات قاعتين و أخرى ذات ثلاث قاعات و أخرى ذات أربع.

تتحكم في اتجاه هذه الحمامات عدة شروط، فقد كان يراعى فيها اختيار الواجهة التي تكون معرضة أكثر لحرارة الشمس لذا نجد حمامات الشمال و حمامات الغرب وكذا حمامات ذات الصبغة الحائطية كانت لها واجهة على الشمال لهذا الغرض.⁽³⁵⁾ لقد تعرضت هذه الحمامات خلال مراحلها لعدة إصلاحات و هي عمليات قد يفرضها توسيع هذه المؤسسات بإضافة قاعات أخرى كما هو الشأن في حمامات الغرب الكبيرة و أحيانا كان هذا التوسع يتم على حساب مساحة قاعات أخرى كما في حمامات ذات الصبغة الحائطية، كما أن الإصلاح قد تمليه ظروف مرتبطة بالماء و التسخين لأن عملية السخونة و الماء تحدث إتلافا لبعض تجهيزات هذه المؤسسة المائية، مما يفرض إصلاحا للحصول على تسخين جيد⁽³⁶⁾.

إن هذا العدد من الحمامات العمومية قد يكون لتلبية حاجيات هذه الساكنة التي حتما ستكون قد تضاعفت خلال هذه الفترة. فهذه الأهمية العددية للحمامات تمكننا من الوقوف على الأهمية العددية للساكنة التي كانت تعمر المدينة خلال الفترة الرومانية.

(32) Ibid., p. 216.

(33) Cité dans Saglio (E.), *Balneum Balneae*, dans Daremberg Saglio, *Dictionnaire des antiquités Grecques et Romains*, T. 1, Paris, 1877, p. 656.

(34) بالنسبة لبناصا، حمامات الشمال و حمامات الغرب تسخن بموقدين أما حمامات ذات الصبغة الحائطية و حمامات الغرب الصغيرة فتسخن بموقد واحد.

(35) THOUVENOT (R.), LUQUET (A.), *Les thermes*, op. cit. p54.

(36) DUVAL (N.), *L'Urbanisme tardif de Sufetula*, dans, C. T., t. 12, 1964, p. 90.

ومن المشاكل المطروحة بالنسبة لهذه الحمامات، تلك المرتبطة بمسألة التزود بالماء وتوفير الوقود الضروري للتسخين، إذ لم تكشف الحفريات عن آثار أنابيب الماء الأمر الذي دفع إلى افتراض استعمال الدواب في نقل المياه إلى خزانات تزود هذه الحمامات⁽³⁷⁾، غير أن عدم العثور على آثار هذه الأنابيب لا يعني عدم وجودها، ربما قد تكون اقتلعت بعد هجر المدينة.

أما بالنسبة للتسخين فيفرض أولا التعرف على التقنيات و الوسائل المستعملة في هذه العملية. وهنا نعرض إلى العناصر التالية الضرورية في هذه العملية.

- **الفرن الأرضي Hypocauste**: ورد ذكره في النصوص القديمة، كما كشفت عنه الحفريات في مواقع مختلفة، وقد ارتبط أصل و تاريخ التسخين بواسطة الأفران الأرضية بتاريخ و بتطور الحمامات.

- **الموقد foyer**: قاعة دائرية أو مستطيلة. يوجد هذا الموقد على واجهة خارجية أو جانبية ومفتوحة لتسهيل التزود بالوقود⁽³⁸⁾. كما أن المواد المستعملة في بناء هذا الموقد من اللازم أن تكون بمواد قابلة لتحمل سخونة النار الموقدة، وهي بوظيفتها تظل أهم العناصر في عملية التسخين⁽³⁹⁾.

يصل عدد المواقد في حمامات بنصا إلى ستة، اثنين في حمامات الغرب الكبيرة و مثلها في حمامات الشمال و موقد واحد في حمامات الغرب الصغيرة وحمامات الصباغة الحائطية. وما يكن ملاحظته حول هذه القاعة أنها ذات خصائص تختلف الواحدة عن الأخرى داخل كل حمام.

- **آليات التسخين Chaudières**: تتخذ شكلا أسطوانيا أو مربعا من البرونز ومنها ما كانت من الرصاص⁽⁴⁰⁾، وكل حمام كان يتوفر على مجموعة منها.

- **قاعة السخونة chambre de chaleur**: تختلف في قياساتها و هنا من يخلط بين قاعة السخونة و الفرن الأرضي. تقام أرضية هذه القاعة في غالب الأحيان على أعمدة دائرية أو مربعة و يتسرب الهواء الساخن إلى القاعات عبر أعمدة مدفونة في الجدران، و يتم إخراج الدخان عبر مدخنات توجد عند أطراف المحمات الدافئة⁽⁴¹⁾. من المسائل الأخرى التي تطرح بالنسبة لتسخين هذه الحمامات هي كمية المحروقات

⁽³⁷⁾ THOUVENOT (R.), Une colonie romaine, op. cit. p43

⁽³⁸⁾ ADAM (J.P.), Construction romaine, Paris, 1989, p. 290.

⁽³⁹⁾ Ibid.

⁽⁴⁰⁾ DEGBOMONT (J.M.), Hypocaustes, op. cit. , p. 78.

⁽⁴¹⁾ THOUVEOT (R.), LUQUET (A.), Les thermes, op. cit. p54

التي يجب أن تستعمل لتشغيلها، فإذا كان مشكل الماء يظل من الأمور العالقة فإن الأمر كذلك لا يقل بالنسبة للوقود وإن كان الاعتماد على مواد محلية قد يساهم في التخفيف من حدة ذلك مثل استعمال نوى الزيتون، و الدس بعد تبييسه، وعصافه الزروع و التين و القش... و مع ذلك تفضل هذه الوسائل بعيدة جدا عن تلبية الحاجيات التي يفرضها هذا العدد من الحمامات بل حتى و إن اعتمدنا على معطى توفر عدد من المعاصر التي تم العثور عليها في المدينة، في طرح افتراض أنه في وقت من الأوقات كانت منطقة الغرب تتوفر على هذه الفصيلة من الأشجار ووقع اجتثاثها فيما بعد، فإن الكميات التي توفر من الوقود تبقى غير كافية، و بالتالي فإن الطرح الذي سيبقى قائما هو جلب المادة الأساسية في التسخين - وهي الخشب - من جهة أخرى خصوصا و أن المجال الغابوي يتميز بتنوعه و كثافته و تبقى الوسيلة الأساسية لنقل هذه المادة إلى بناسا، التي تحتاج إليها كذلك في مرافق أخرى كالأفران و المخبرات، هو واد سبو الذي تمت الإشادة بصلاحيته للملاحة .

يعكس هذا العدد المهم من الحمامات، مقارنة مع المساحة التي كشفت عنها الحفريات، وجود ساكنة مهمة نسبيا تسكن المدينة و التي يمكن أن تضاف إليها ساكنة بادية بناسا و التي من دون شك كانت تتردد على هذه الحمامات خلال فترات معينة .

تولّى السيّد أبو إسحاق إبراهيم بن الخليفة يوسف على إشبيلية أكثر من مرة، فقد تولّى أمرها في عهد أبيه خلال السبعينيات⁽⁶⁾ وهي فترة كانت عصيبة بالنسبة للأندلس فيما يتعلق بالضغوط البرتغالية والقشتالية على الأراضي الإسلامية في الوقت الذي انشغل الموحدون بظروف عدم الاستقرار في إفريقية⁽⁷⁾، وهذا ما استدعى جواز الخليفة يوسف إلى الأندلس سنة 579 هـ، إلا أن الحملة انتهت بوفاته بعد فشله في حصار شنترين أواسط سنة 580 هـ. كما تولّى السيد أبو إسحاق إبراهيم على إشبيلية في عهد الناصر ابن أخيه خلال سنتي 600 و601⁽⁸⁾، ثم منذ سنة 607 منقولا إليها من غرناطة⁽⁹⁾، وهي فترة أخرى عصيبة على الموحدين بالأندلس، حيث كانت إسبانيا النصرانية تستعد لمواجهةهم بعد نجاح الكنيسة في توحيد الجهود والالتفاف حول ملك قشتالة في المعركة القادمة، وهي معركة العقاب التي أسفرت عن هزيمة ساحقة للموحدين سنة 609 هـ/1212م انعكست آثارها السلبية على الأندلس والمغرب لفترة طويلة من الزمن. استمرّ السيد أبو إسحاق إبراهيم بن الخليفة يوسف في ولايته الأخيرة لإشبيلية إلى وفاته في شعبان سنة 612، ومُنّ كتب عنه في فترة ولايته الأخيرة الأديب الكاتب أبو القاسم البلوي، فكتب عنه مجموعة رسائل أوردناها في كتاب "رسائل موحدية"⁽¹⁰⁾، ونورد في هذا المقال مجموعة رسائل في العزاء أنشأها عنه وعن غيره خلال سنتي 611 و612. فقد كتب أيضاً عن السيد عثمان بن أبي إسحاق المذكور رسالتين إلى المستنصر ووزيره ابن جامع ينعي وفاة أبيه سنوردهما أيضاً في هذا المقال⁽¹¹⁾.

ومن أصاغر أبناء عبد المومن وآخرهم وفاة أبو موسى عيسى الملقّب بالعابد⁽¹²⁾، الذي دخل ميدان السياسة في عهد أخيه يوسف، فبعد أن أعاد هذا فتح قفصة من يد بني الرّند سنة 576⁽¹³⁾ أسند ولاية إفريقية لأخويه أبي موسى عيسى وأبي علي

(6) ابن عذاري: البيان المغرب 116؛ راجع عنه ما كتبه المرحوم محمد زنيبر في معلمة المغرب 1/95-96 (مادة: إبراهيم بن يوسف)

(7) انظر محمد ابن عزّوز حكيم في "المغرب في مواجهة الحملات الصليبية" ج 1 / 17، 20 (طبعة تطاون 2003)

(8) البيان 219، 218

(9) البيان 234

(10) عزّواي: رسائل موحدية (مجموعة جديدة) ج 1/ عدد 77، 90، 91، 92، 93 وهي مستخرجة من كتاب البلوي "العطاء

الجزيل في كشف غطاء الترسيل، (الخزانة الحسنية رقم 6148). راجع ترجمة مؤلفه البلوي في الجزء الأول من كتابنا: رسائل موحدية.

(11) كان للسيد أبي إسحاق ابن آخر هو أبو إبراهيم وكان أثناء موت أبيه غائباً في بطليوس ربما للنّياحة عنه فيها منذ أضيفت هذه المدينة إلى والي إشبيلية (رسائل موحدية عدد 103، 104). وعندما وصل الابن إلى إشبيلية ووقف على قبر أبيه رثاه البلوي بقصيدة ونثر (العطاء 87 وما بعدها)

(12) ابن عذاري: البيان المغرب 56؛ ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة... س 1/ 455

(13) عزّواي: رسائل موحدية (مجموعة جديدة) ج 1/ الرسائلان 30، 31؛ رسائل ديوانية موحدية رقم 42 (الرباط

2006)؛ برفنصال: مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المومنية، الرسالة رقم 20، طبعة الرباط 1941

الحسن⁽¹⁴⁾، إلا أن عيسى وقع أسيراً في يد القبائل العربية خلال إحدى المواجهات معهم إلى أن افتُدي بمبلغ من المال⁽¹⁵⁾. وبعد تولي المنصور ابن أخيه الخلافة وقع في أسر بني غانية ببجاية في طريق سيره نحو المغرب، ولبت في المعتقل إلى أن استرجع الجيش الموحد هذه المدينة سنة 581⁽¹⁶⁾. ويبدو أنه بقي منذئذ بدون منصب سياسي حتى سنة 601 حين أسند إليه الخليفة الناصر بن المنصور ولاية إشبيلية⁽¹⁷⁾، فبقي بها على الأرجح إلى سنة 605 فخلفه عليها أبو إسحاق بن المنصور⁽¹⁸⁾. والملاحظ أنه بعد وفاة الناصر كان لأبي موسى الدور الأساسي ضمن القرابة في بيعته ابنه المستنصر سنة 610⁽¹⁹⁾. وقد أشار المراكشي إلى بقاءه على قيد الحياة إلى ما بعد سنة 620⁽²⁰⁾. ومن أبناء عيسى العابد المذكور السيدان أبو عمران موسى وأبو محمد، وبالنسبة لأبي محمد هذا فقد توفي في حياة أبيه عيسى، فتلقّى بالمناسبة رسالة تعزية - غير مؤرخة - من إنشاء الأديب الكاتب أبي القاسم البلوي⁽²¹⁾، الذي كتب عنه في زمن سابق⁽²²⁾.

كان أبو موسى العابد أصغر من أخيه الخليفة يوسف، وكان لهذا الخليفة من الأولاد ثمانية عشر ذكر المراكشي أسماءهم⁽²³⁾، فمنهم - إضافة إلى يعقوب الخليفة بعده - موسى، وعبد العزيز (أبو محمد)، وإبراهيم (أبو إسحاق)، ويحيى (أبو زكرياء). وقد أورد البلوي⁽²⁴⁾ من إنشائه رسالة عمّن سمّاه "عيسى بن الخليفة أمير المؤمنين" كتبها عنه بمراكش إلى السيد "أبي محمد بن الخليفة أمير المؤمنين" ! معزياً في وفاة أبي زكرياء أخي السيد أبي محمد. ويمكن أن نفهم من الرسالة المذكورة أن الثلاثة معا إخوة، وهذا ما يطرح إشكالا، فإذا افترضنا

(14) البيان 115 - 116.

(15) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (270-271)، وقد ذكر أن المال المدفوع كان مزيّفاً حتى

لا يتفوّق به العرب.

(16) البيان 148 - 150.

(17) البيان 219.

(18) المعجب 308، البيان 230.

(19) المعجب 326.

(20) المعجب 326.

(21) العطاء الجزيل 81 - 82 (خ ح/ 6148) كان اسمه في البداية "تشيبيب الإبريز والمزيد الأحقّ التبريز على ما جاء من

الترسيل في كتاب ابن عمر المسقى بالوجيز" (العطاء 172). راجع ترجمة البلوي في كتابنا "رسائل موحدية" 1 /

ص 32.

(22) الذيل س1/ ص 455.

(23) المعجب 245.

(24) أبو القاسم البلوي: العطاء الجزيل. 89.

